الوصايا النثرية في العصر العباسي
قراءة في الوظائف التداولية

أ.م.د. ماجدة عجيل صالح
جامعة الموصل
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

البريد الإلكتروني Email : majidamajida382@uomosul.edu.iq

الكلمات المفتاحية: الوصايا –النثرية– الدلالية – العصر العباسي – التأثير.

كيفية اقتباس البحث
صالح ، ماجدة عجيل، الوصايا النثرية في العصر العباسي قراءة في الوظائف التداولية، مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية،٢٠٢٢،المجلد:١٢ ،العدد:١ .

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

Prose commandments in the Abbasid era Read on trading posts

Teacher doctor Majida Ajil Saleh
University of Mosul
College of Education for the Humanities
the department of Arabic language

Keywords :Commandments - Prose - Semantic - Abbasid era - Influence.

How To Cite This Article
Saleh, Majida Ajil, Prose commandments in the Abbasid era Read on trading posts, Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, Year :2022,Volume:12,Issue 1.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

Abstract

The pragmatic methodology in the Abbasid era, which accompanied the era in its expressive and intellectual forms, became multifunctional as it linked to human life and his general experience, since the diversity of the intellectual bears of those commandments and according to the attitude in which it was said, it often associated with the sincere feelings of the speaker towards his audience, and in a direct manner carried in it preaching, wisdom, proverbs and etc., and the pragmatic methodology to studying those texts, the study found the most comprehensive in understanding of the text and the circumstances and attitudes surrounding it, reflecting on the structure and form of the text.

In this regard, we have limited ourselves to the study of the pragmatic functions that highlighted the aesthetics of the text and its expressive formulation, the most prominent of which is the argumentative function, which constitutes the most prominent function of the general language and is latent in it, it is the most successful function in the process of communication between the speaker and his audience, while the guiding

function was strengthened according to the intellectual bear of the speech, and the study sought in this way to understand what is in the text, and to direct the addressor according to the speaker's vision, or to alienate him from something, and this function was strengthened in the process of communication between the speaker and his address. While the aesthetic function played a prominent role in simulating reality, and reformulating it aesthetically, with its full of images, inspirations and harmony, it influenced the recipient. The study made him participate in making meaning and enjoying it

These functions may overlap in the same text, but we have tried to distinguish between one function and another, by choosing texts that varied instantly, attitude and expression in general, and the various intellectual contents carried by the commandments as prose art based on a range of arguments and orders, a chapter on the diversity of linguistic methods intended by the speaker, in which we have combined a linguistic stock with a comprehensive human experience. The texts where we found something to do with it.

الخلاصة

تعددت وظائف المنهج التداولي في الوصايا النثرية في العصر العباسي، التي واكبت العصر بأشكاله التعبيرية والفكرية، مرتبطة بحياة الانسان وتجربته عامة، اذ تنوع المحمول الفكري لتلك الوصايا وبحسب الموقف الذي قيلت فيه، وغالباً ما ارتبطت بالمشاعر الصادقة للمتكلم تجاه لمخاطبِه، وبأسلوب مباشر حمل في طياته الوعظ والحكمة والامثال وغيرها وإذ اخترنا المنهج التداولي لدراسة تلك النصوص فانا وجدنا فيه الاشمل في استيعاب النص وما يحيط به من أحوال ومواقف، منعكساً على بنية النص وشكله التعبيري عامة.

واقتصرنا في ذلك على دراسة الوظائف التداولية التي ابرزت جمالية النص وصوغه التعبيري، وابرز تلك الوظائف هي الوظيفة الحجاجية التي تشكل الوظيفة الأبرز للغة عامة وهي كامنة فيها، فهي الوظيفة الأكثر نجاحاً في عملية التواصل بين المتكلم ومخاطبه، فيما تعززت الوظيفة التوجيهية بحسب المحمول الفكري للخطاب، وما قدمته من طروحات تسعى في ذلك لإدراك ما في النص، وتوجيه المخاطب بحسب رؤية المتكلم، او تنفيره من شيء ما، وتعززت هذه الوظيفة في الوصايا الدينية عامة، في حين قدمت الوظيفة الجمالية دوراً بارزاً في محاكاة الواقع، وإعادة صياغته بصورة جمالية، بما زخرت من صور وايحاءات وانسجام، اثرت في المتلقي .. وجعلته يشارك في صنع المعنى والتمتع بذلك.

وقد تتداخل هذه الوظائف في النص ذاته الا اننا حاولنا التمييز بين وظيفة وأخرى، عن طريق اختيار النصوص التي تنوعت في الحال والموقف والشكل التعبيري عامة، وما حملته الوصايا من مضامين فكرية متنوعة بوصفها فنَّ نثرياً أُسس على جملة من الحجج والاوامر فصلاً عن تنوع الأساليب اللغوية التي قصدها المتكلم، مزاوجاً في نصّه بين مخزونٍ لغوي وتجربة إنسانية شاملة، فكان الخطابُ موجهاً من الأكبر الى الأصغر عامة، بحكم الترابط الأُسري او السلطوي او الديني، او غير ذلك، فاخترنا عدداً من النصوص التي وجدنا فيها ما يحقق ذلك كله، فضلاً عما يحيط بالنص من مواقف واحوال لها دور كبير في تلقي الخطاب والاستعداد لقبول مضمونه والتأثر فيه.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد...

تنوعت الفنون النثرية في العصر العباسي وتعددت، مواكبة معطيات العصر ومتطلباته عامة، ومن تلك الفنون النثرية الوصايا النثرية التي تميزت ببنية خطابية مغايرة على وفق آلية التواصل بين المتكلم والسامع، فانغمر هذا الفن النثري بفرادة ميزته بالشكل والمضمون، إذ مال الشكل نحو التكثيف والمباشرة والدلالية، وإن صعب حصر المعنى والإحاطة به؛ لامتزاج ذلك الفن بشعور الكاتب وإحساسه وهو يلج في استدعاء تجربته المعاشة على مر الزمان، ومحاولة تقديمها للسامع وفق مقام وموقف محدد، يجمع أقطاب العملية التواصلية، وعلى هذا كانت التداولية المنهج الأكثر قرباً لهذا الفن النثري في عنايتها بقضية التلاؤم بين التعبير والسياق والمقام، الذي تحدث فيه عملية التواصل، آخذاً من اللغة حريتها في الحركة وفي تأدية وظيفتها حسب المقام الذي ترد فيه، وفي ضوء هذا التصور تعددت وظائف ذلك المنهج في الوصايا النثرية في العصر العباسي، وأبرز تلك الوظائف هي الوظيفة الحجاجية التي تشكل الوظيفة الأساسية للغة عامة، وهي كامنة فيها؛ للوصول إلى الإقناع وبشكل تواصلي مقصود، فيما تعززت الوظيفة التوجيهية في دلالة الطروحات المقدمة من المتكلم بعدد من الأساليب منها التحسين أو التنفير أو حتى المبالغة في تفخيم المعنى للتأثير على المتلقي وتوجيهه حسب رؤية المتكلم، في حين قدمت الوظيفة الجمالية دورها الأساس في محاكاة الواقع وإعادة صياغته بأسلوب جمال غير مألوف، لإثارة المتلقي والتأثير عليه.

وقد تتداخل هذه الوظائف في النص ذاته، إلا أننا حاولنا التمييز بين وظيفة وأخرى عن طريق اختيار النصوص التي تنوعت في الحال والموقف واختلاف عناصر العملية التواصلية وتنوع موضوعاتها.

ويأتي التفصيل في تلك الوظائف بحسب حضورها الأكثر في النصوص:

١- الوظيفة الحجاجية:

ركز ديكرو وزملاؤه على الحجاج، بوصفه أحد وظائف اللسان الأساسية التي يتوجب فيها إقناع المتلقي بفعل تأثيري يتداخل بشكل مباشر مع فعالية الحجاج المقدم، فالمتلقي ليس مستعداً دائماً لقبول المحمول الفكري لكل ملفوظ، بل غالباً ما ينتظر تعليلاً أشد تأثيراً قبل موافقته وقناعته بما يسمع [١]، لذا كان لهذه الوظيفة الدور الأبرز في الوصايا النثرية ونجاح عملية التواصل بوصفها الشاحن الأهم في التأثير على المتلقي وإقناعه، سعياً للوصول إلى مركزية اليقين بأداء المتكلم، والأداء عامة هو استعمال مصقول للغة بوعي جمعي يربط أقطاب عملية التواصل بعيداً عن السياق المعجمي.

عبرت المناهج الحديثة -ومنها التداولية- بالنص إلى شبكة من العلاقات الإنسانية بجهاز متكامل من التوافقات والقوانين التي تنظم ذلك التخاطب [٢]، لذا عد الحجاج الوظيفة الأساسية للغة؛ لأنه لم يقتصر على التواصل والإبلاغ حسب، فكانت "الوصايا" النموذج الأقدر لأداء مهام تلك اللغة، بوصفها بنية لغوية مؤسسة على جملة من الحجج والأوامر وتنوع الأساليب يقصدها المتكلم بوصفه حامل الرسالة (المرسل) والذي يتمتع بثروة معرفية وتجربة إنسانية، آخذاً سلطته من المركزية الدينية أو العائلية أو السيادية في الحكم عامة.

ومن تلك الوصايا وصية أم لولدها يريد السفر، كشفت فيها الذات لغتها في سياق حجاجي، بدأ بمقدمة حجاجية تثير انتباه المتلقي لاستقبال ما سيقال من محمولات فكرية قبل الرحيل إذ تقول [٣]: "أي بني، اجلس أمنحك وصيتي، وبالله توفيقك، فان الوصية اجدى عليك من كثير عقلك، أي بني! إياك والنميمة فإنها تزرع الضغينة، وتفرق بين المحبين...".

وقفت بنية الاستهلال تداولياً على أرضية معنوية صلبة، وثقة مطلقة؛ لتحفيز السامع والتنبه لما سيقال، وإعداده نفسياً وإثارة مشاعره قبل السفر، إذ تحاول الأم التماسك والتظاهر بالقوة عن طريق طروحاتها في مقام قد لا يتكرر ثانية، فيظهر الاستهلال منزاحاً عن المألوف "أي بني... اجلس أمنحك وصيتي..." فالنداء حاضر في دلالة "أي" وهو احد فنون التخاطب لمن هو قريب، فأعطى هذا التركيب دلالة الطمأنينة والاستقرار قبل الرحيل، فضلاً عن أن الخطاب أقرب إلى الهمس منه إلى الكلام، فكان الاستهلال مشحوناً بجو الألم والعاطفة من أم

تودع ولدها، فكانت "أي بني..." أشبه بملخص موضوعي وخطابي شكل حافزاً نفسياً للاذعان والتسليم بالوصية تواشج ذلك مع دلالة "بني..." التي شكلت عتبة مهمة في الخطاب لما حوته من طاقة إيجابية كامنة في دلالتها الصرفية المصغرة عن "ابن" للتحبب والتعطف، ودارت هذه الصيغة على ألسنة الشعراء والأدباء في تقريب منزلة المصغر والتحبب إليه والتأثير فيه.

وعامة لا تتقيد المظاهر الحجاجية أياً كان نوعها بالروابط الحجاجية بل تتمثل في كثير من الظواهر الصرفية والدلالية والمعجمية وغيرها [٤]، ويتداخل هذا العدول مع الحجاج بوصفه فعلاً تداولياً، لا يمكن تفسيره دون إظهار مراتب المتكلمين والعلاقة التي تجمعهم، فضلاً عن أهمية السياق التخاطبي بينهم [٥]، فتوالي الصيغ وتنوعها منح النص هيكلاً حجاجياً مؤسساً على بنى واقعية وببنية منزاحة، وعامة قد يتأسس الحجاج على مثال خاص أو تجربة معينة يحاول المتكلم توسيعه وتعميمه حتى يغدو قاعدة عامة مؤسساً بذلك واقعاً جديداً يحتكم إليه ويوجه به أطروحته ويدعمها حتى يخرج الحكمة والكلام المتفق على صحته وصدقه .[٦]

فاختزلت الأم تجربتها في توالي تلك السطور محاولة استيفاء معان عدة إذ تقول: "اجلس أمنحك وصيتي وبالله توفيقك، فان الوصية أجدى عليك من كثير عقلك، أي بني إياك والنميمة، فإنها تزرع الضغينة، وتفرق بين المحبين...".

إذ يأتي الفعل الإنجازي "اجلس" مؤدياً دوره في تغيير ما يحيط بالموقف فالفعل أدى وظيفته الحجاجية في تغيير الحال والبدء بالكلام لسحب المتلقي نحو الإذعان والتسليم، وتؤدي الوظيفة الحجاجية دوراً في استيعاب ما تشمله اللغة من "تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب"[٧]، فالتهيؤ وسياق الحال، فضلاً عن اللغة منح المتلقي جواً نفسياً مستعداً لاستقبال ما سيرد من الأم من كلام، "أمنحك وصيتي... وبالله توفيقك.."، فالبدء بالبوح والكلام سبقه صيغة الدعاء... وبالله توفيقك. بعد التودد والتحبب، يحاول تهدأة النفوس قبل الوداع، فظهرت الأم وكأنها ستقف على الأطلال تشكو حالها وتعبر عن دواخلها ولكن بصيغة مغايرة، تستعيد تجربتها الطويلة أمام ولد قرر الرحيل، وقد لا تراه مرة أخرى، فالعجز والمبادرة اجتمعا في موقف واحد، انبجس عنه تنوع الدلالات والتوجيهات والمحاججة، والتي عامة يسعى المتكلم أو الكاتب من توظيفها لجعل السامع يفعل شيئاً أو يحجم عن فعل شيء ما [٨]، فالكلمات ترافقه دون الأم، إذ تقول "...إياك والنميمة فإنها تزرع الضغينة، وتفرق بين المحبين، وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً".

تحضر صيغ التحذير "إياك" وتواشجها مع أسلوب التكرار ضمن محور الإقرارات، وهي جزء من "الحجاج المقدم للدفاع عن وجهة النظر"[٩]، ويعطي أسلوب التكرار دوراً في جذب

المتلقي وعدول المتكلم عن المألوف وما يولده من إيقاع جمالي، يطرق أذن السامع وهو يسمع الوصية.

تنوعت الأساليب التي تدخل ضمن الحجاج في عرض الوصية مثل الأمر، الدعاء، التوكيد، النهي، إذ تقول: "... وخليق ان لا يثبت الغرض على كثرة السهام، وقلما اعتورت السهام غرضاً إلا كلمته حتى يهي ما اشتد من قوته، وإياك والجود بدينك والبخل بمالك...".

إذ نجد الزخم الدلالي الذي حاولت الأم الزج به في معرض وصيتها لابنها، فاختزلت تجربتها المعاشة في سطور عدة، وبتحول دلالي ولغوي، وبأساليب عدلت عن المألوف أو مقتضى الظاهر، ويقع كله تحت مظلة الحجاج، فالتقابل الدلالي حاضر في النص ويعد أحد إرهاصات الحجاج:

الضغينة × المحبين

التعرض للعيوب × تتخذ غرضاً

يهي × اشتد من قوته

الجود × البخل

اهزز × لا تهزز

استحسنت × استقبحت

اعمل به × اجتنبه

فالتقابل الدلالي أعطى دوره في الإقناع والتأثير، وهذا ما اطلق عليه بالعوامل الحجاجية، التي هي عناصر حجاجية إسنادية تربط مكونات النص وتزيد في تأثيره على المتلقي، إذ تصاعدت تلك الدلالات مع عمق التجربة واستيفاء أبعادها، فتظهر الدلالات متنوعة بين عدد من المرجعيات الدينية والاجتماعية والثقافية، فهي أشبه بورقة عمل تعطي للولد مفاتيح النجاح في تعاملاته وعباداته عامة، وإذ يمضي النص على وفق ذلك الاتساق والانسجام، يأتي الملخص أو الختام بقولها "... ومن كانت مودته بشره، وخالف ذلك منه فعله، كان صديقه منه على مثل الريح في تصرفها".

إذ تحمل آواخر الوصية دلالات عدة تتمحور حول تنظيم العلاقة مع الناس واثر ذلك على المتلقي، وتحمل في طياتها أبعاداً حجاجية وإقناعية، إذ نجد أسلوب الشرط: من كانت مودته بشره وخالف ذلك منه فعله كان صديقه منه على مثل الريح في تصرفها، فاكمل أسلوب الشرط ما سبقه من تنوع أسلوبي، يظهر خصيصة التفاعل والتواشج لتحقيق مقاصد اقناعية وحجاجية.

٢- الوظيفة التوجيهية:

هي إحدى وظائف التداولية التي يسعى المتكلم لإدراكها في نصه، والمقصود بها توجيه سلوك المخاطب وموقفه نحو أمر من الأمور، سواء كان هذا التوجيه بغرض الترغيب في الشيء أو التنفير منه، ويمكن الحديث عن عدد من القدرات التي يمكن للمتكلم استثمارها في تحقيق هذه الوظيفة في معرض نصه، وتزخر الوصايا الدينية بهذه الوظيفة، فضلاً عن غيرها من الوصايا، إلا ان الوصايا الدينية تحاول "إثارة المشاعر لفعل الخير، وتجنب الشر، وتوجيه النفوس نحو الله"[١٠]، ومن تلك الوصايا وصية إبراهيم بن ادهم (ت ١٦٢هـ): "إياكم والكبر.. إياكم والإعجاب بالأعمال... انظروا إلى من دونكم، ولا تنظروا إلى من فوقكم...".[١١]

تبرز الوظيفة التوجيهية في عدد من الدوال في الاستهلال، الذي أبرز دواخل المتكلم ومكنوناته للوصول لغاية تداولية في التوجيه، فضلاً عن الإفهام والذي "ينطوي على استحضار الآخر من جهة، واعتبار الوظيفة التواصلية للقول من جهة أخرى".[١٢]

ويتحدد ذلك التواصل عن طريق أداة النص والتوجه بالخطاب المباشر دون مقدمات إذ يقول: "إياكم والكبر.. إياكم والإعجاب بالأعمال..." فالاختراق المباشر لذهن المتلقي بالتحذير من الكبر والعُجب بالأعمال بأسلوب التكرار يعطي إشارات عديدة ابرزها إيمان المتكلم بعقيدة راسخة استقر عندها، وحاول البوح بها وتوجيه المخاطب وترغيبه فيها.

إن القول الذي يقصر عن اختراق الآخر يعد قولاً قاصراً عن الإفهام، وأهمية القول تبرز في الإبانة عن المقاصد والتعلق بحاجات عديدة تجعل منه وسيلة إجرائية تنجح في تحقيق الرباط أو التواصل المطلوب بين المتكلم والسامع [١٣]، فبدء الوصية بصيغة "إياكم... وتكرارها بأسلوب الجمع توحي بسلطة المتكلم التي تنهض على عدد من الأبعاد التداولية، فالمحمول الفكري في الكبر، الإعجاب ليس بالمال بل بالأعمال تعطي مؤشراً واضحاً على عقيدة المتكلم، والتركيز على الجانب الروحي، فضلاً عن ان الخطاب الموجه للناس يبدو انه أكثر من استيعابهم وفهمهم، لان الفتنة غالباً ما تكون في المال وليس بالأعمال، فالخطاب موجه إلى من هم من صنف المتكلم من العلماء أو المتصوفة، الذين غالباً ما يضّمنوا نصوصهم بعدد من الإشارات غير المألوفة أو تحمل في طياتها دلالات إيحائية ومتعددة في الآن ذاته، فالعتبة التي بدأ بها المتكلم في نصه توحي بسلطته الدينية لاتباع فهموا مقصده وغايته، ووجد كل من سير وغرايس ان النص يضم نوايا المتكلم ومواضعات استعمال اللغة، وما يمكن للعبارات اللفظية التي تنجز الوظائف الخاصة التي يريدها المتكلم أو الكاتب .[١٤]

إذ تلمح جانب التفاعلية مع المجتمع، وتشخيص سلبياته والحث على تغييرها بالاتكاء على مرجعية دينية، كانت ضمن تيار نشأ عن قلب المجتمع معاكساً لتيار المجون والتحلل الذي ساد في المجتمع آنذاك، يقول إبراهيم بن ادهم: "...انظروا إلى من دونكم، ولا تنظروا إلى من فوقكم...، وعامة تأخذ الحجج الجاهزة دورها في الخطاب التداولي، وتبدو براعة المتكلم في توظيفها فهي أشبه بمرجعية ثقافية مبنية على كفاءة تداولية يحاول المتكلم توظيفها بحسب ما يتطلبه السياق .[١٥]

فتركيبا الأمر والنهي حضرا تحت اطار التواصلية التي هي تبئير انتباه المتلقي، وربط نوع من التواصل بينه وبين المقروء، فضلاً عن خلق نوع من التقارب بينهما، لتحريض المتلقي على القراءة والتواصل .[١٦]

فأعطى المتكلم صورة كلية عما يريد تحديده للسامع، ويدخل هذا ضمن نسق أيديولوجي تبعه المتكلم لتحقيق التواصل، واقتحام فضاء النص عامة بدواعي عديدة ابرزها الاتساق في النص، والذي هو شكل لفظي قد يطلق عليه النظم ويعني حسن استعمال اللفظ مع مراعاة المقام وكل ما يحيط بالنص [١٧]، وتبرز الوظيفية التوجيهية في قول المتكلم "... من ذلل نفسه رفعه مولاه، ومن خضع له أعزه، ومن اتقاه وقاه ومن أطاعه أنجاه، ومن اقبل إليه أرضاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن سأله كفاه، ومن سأله أعطاه، ومن أقرضه قضاه، ومن شكره جازاه.."، فأعطت هذه الدوال إحالة واقعية بعد الخطاب إلى الجماعة إذ تنتظم الضمائر في الخطاب انطلاقاً من الذات المتكلمة أو "الأنا" وهي دائما مترابطة سواء مثلاً أو ضداً .[١٨]

وإذ تشكل هذه الدوال نسقاً ضدياً يتمحور حول موضوعة أساسية هي التقرب إلى الله عز وجل فإنها تتجاوز الزمان والمكان بتشكيلات منفتحة دلالياً، ولا يمكن حصرها أو الإحاطة بها، ويبرز الاتساق بوصفه نسقاً من التوافقات الاحتمالية لسمات مختلفة في الوحدات المعجمية الموجودة في نص واحد عن طريق تكرار عدد من الصفات الدلالية من جهة، واستدعاء عدد من المفردات وضمها مع بعضها البعض ضمن علاقات معجمية مثل التضاد أو التخالف وهذا ما يسمى بالتضام من جهة أخرى [١٩]، فظهر النص بمنظومة دلالية متكاملة سعى المتكلم من خلالها تنظيم حياة العبد مع ربه بانتقاء لفظي محكم جمع الفعل والجزاء باطار معنوي عام يسعى لتسامي الروح ووصولها للرضا، فالاختزال الدلالي وتكثيفه بصيغته التداولية اتكأ على عدد من المعطيات المقامية أعطت للمتكلم سلطة التوجيه والنهي، فاستثمر قدراته الكلامية للوصول إلى مبتغاه لتحقيق المنال ورضا الله عز وجل، ولا تنفصل هذه الاختيارات عن مقصد المخاطب فبواسطة هذه الإجراءات يقود المتكلم السامع بطريقة أكثر فعالية في الاتجاه الذي يريده، حسب

المواجهات التي تنوعت بين إثباتي وإلزامي واستفهامي وبالتمني [٢٠]، ويمكن حصر هذه الدوال في هيكل دلالي علاقته التضاد.

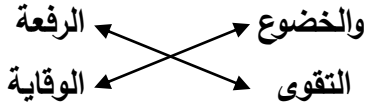

اكتسبت هذه العلاقات الدلالية قوته التوجيهية والإقناعية وكذلك في كونه يلج في "عالم الشعور ويستثمر الثوابت والمسلمات القارة، فالمتكلم يعتمد قيماً ينتقيها بدقة بحث تلائم أهدافه الحجاجية وغايات خطابه"[٢١]، فتحيل الصورة الكلية لخطاب المتكلم على بؤرة (صوفية) بالتذلل والخضوع والتقوى والطاعة، بالإحالة المرجعية على العبد والله عز وجل، فاستحضار تلك الدوال من حيث الكلمة أو الجملة وصوغها بشكل جمالي ينطوي تحت غاية محددة أساسها التوجيه ومن ثم التأثير في المتلقي وإقناعه.

٣- الوظيفة الجمالية (الإيحائية):

لا تقف هذه الوظيفة عند الحجاج أو التوجيه بل تتعداه إلى التأثير وتحقيق المتعة الجمالية للمتلقي، ويندرج تحت مسمى هذه الوظيفة كل ما تضمنه النص من إيحاءات وصور ومحاكاة وتناص وانسجام وغيرها، أي كل ما يكسر أفق توقع المتلقي، ويجعله يشارك في صنع المعنى والتمتع بذلك.

ومن تلك الوصايا النثرية ما أوصاه المأمون لأبنائه عندما جمعهم "يا بني ليعلم الكبير منكم أنه إنما عظم قدره بصغار عظموه، وقويت قوته بضعاف أطاعوه، وتشرفت همته بعوام أطاعوا له، فلا يدعونه تفخيم المفخم منهم إياه إلى تصغيره.. ولا يؤمن بتسمية الأعاجم ولياً وأخاً، فان الشيء الذي هو من أجزاء خسيسة ومعان مذمومة هو أيضاً خسيس ومذموم...".[٢٢]

تزخر الوصية بعدد من الجماليات التي تواشجت مع المحمول الفكري للوصية، إذ نجد ان هناك ثنائيتين تحددان الاطار العام للوصية تبدأ بالأبناء فيما بينهم من جهة، فيبدأ المتكلم بأسلوب النداء فضلاً عن تصغير بني للتحبب والتلطف، لكن التخصيص يأتي في تحديد الكبير فيهم، أو من كبرت نفسه على من حوله فحاول المتكلم الموازنة في حكمه ورؤيته في انتقائه لعدد من الدلالات وتأطيرها بهيكل جمالي تداخل فيه التقابل والتضاد في قوله "...إنما عظم قدره بصغار عظموه، وقويت قوته بضعاف أطاعوه، وتشرفت همته بعوام أطاعوا له".

فالأب هنا السلطة التي توجه الخطاب بحسب رؤيتها للأشياء، بالاعتماد على جمالية التقرير والمباشرة، إذ لجأ المتكلم إلى الوصف المعنوي الذي أعطى عدة وظائف متصلة بأداء المعنى وإنتاجه، فضلاً عن دوره في الوظيفة الخطابية والجمالية والاقناعية كذلك؛ سعياً في

استمالة السامع وإقناعه، ولعل الحرية التي يتمتع بها الوصف داخل الخطاب تجعله جديراً بإنتاج الدلالة وتوجهها، وكذلك الانتقائية لعدد من المحمولات الفكرية التي تظهر المقاصد والغايات الكامنة في نفس المتكلم [٢٣]، وفقاً لحركة ديناميكية يحاول المتكلم بإطارها بناء الانساق وترتيب الدوال حسب أولوية المتكلم ورؤيته عامة، دشج عن هذا التأطير التوازن المعرفي والدلالي الذي يقوم على علاقة تجاذب بين الذات المتكلمة وما تتصل به سواء بالحوار أو الوصف اعتماداً على اختيار معجمي وتركيبي وسياقي [٢٤]، إذ افترش النص بمساحة دلالية كبيرة تمحورت في نسقين خضع الأول فيه لتنظيم العلاقة بين الإخوة عامة، فيما تعزز الثاني في تنظيم العلاقة مع الولد وعامة الناس، وان حضر الاستلاب في قوله "صغار، ضعاف، عوام.. في حين قدم هذا المحور (الضعيف) القوة المزعومة للكبير"، ويؤدي هذا إلى خلل أو تعالق غير صحيح، لان فاقد الشيء لا يعطيه، وإذ اسقط ذلك الضعف والصغر على محو يمنح القوة فذلك يدخل ضمن اطار المفارقة أو حتى التهكم، فكيف لصغار أو ضعاف أو عوام إعطاء تلك القوة والشرف والهمة، فهي أذن غير موجودة، بل هي مرسومة في ذهن الابن حسب وهي زائلة لا محالة.

ان اصطفاف الألفاظ بذلك التأطير الدلالي لا ينفك عن إعطاء دلالة إيقاعية تدخل ضمن المجانسة التي هي أحد مقومات الإيقاع، والتي لا تقنن بأطر ثابتة بل يمكن ان تنشأ من خلال عدد من الملائمات الصوتية أو التشابه الصوتي للألفاظ [٢٥]، إذ يقول:

عظم قـدره بصغار عظموه

قويت قوتـه بضعاف أطاعوه

شرفت همته بعوام أطاعوا له

ولا تخرج المتواليات اللاحقة عن هذا المنوال الدلالي والتجانس الإيقاعي، فكان التركيب أشبه بعتبة تشظت عنها الدلالات اللاحقة عامة، إذ يقول: ".. فإن الشيء الذي قوله من أجزاء خسيسة ومعانٍ مذمومة، فهو أيضاً خسيس مذموم، وكل أمر من ذلك جزء من عدده وعماد من عماده، فاذا أخلت أجزاؤه ومالت دعائمه مال العماد وتهدم الكل...".

ولعل للسلطة التي يملكها المتكلم دوراً هاماً في توجيه هذا الخطاب وإقرار السامع واعترافه بها سلفاً، مع غياب الذات والكلام بالعموم، ولعل هذا ما يميز الوظيفة الجمالية بالتركيز على الرسالة نفسها، كما يرى جاكسبون، فمركز الثقل يقع في قصد الإرسالية .[٢٦]

وإذ بدت تجربة المتكلم منسابة في تفاصيل الكلام فان ذلك يشكل البؤرة الأساس في النص، وتنظيم العلاقات مع الآخرين، فأعطت تلك البنية الدلالية انعكاساً صريحاً لحقيقة أزلية بقوله: "إن من جرعك المرء لتبرأ هو أشفق عليك ممن أمنك لتخاف"، فالعبرة في خواتيم الأمور،

ويمكن وصف هذه البنية بانها الأصل الذي تقوم عليه عدد من مرتكزات الوصية إذ تتعالق البنية الفنية مع تلك الدلالة وتتنوع:

جرعك، سقاك

خوفك، أمنك

المر، الحلو

لتأمن، لتخاف

لتبرأ، لتسقم

فضلاً عن التكرار في قوله "أبر" ويمكن اعتبار البنية الدلالية الأصل، والتي تكون عمليات الإرسال والتلقي فيها رهينة البنية الفنية مركز الاستقطاب الدلالي عامة [٢٧]، لاسيما وانها زخرت بصورة فنية تداخلت مع معطيات التجربة الذاتية للمتكلم، وللصورة فضلاً عن وظيفتها الإيحائية، لها بعد دلالي في كشفها عن تجليات المعنى وخصوبة الشكل في علاقاته المتعددة معها، واستمرار هذه العلاقات في احتواء السياق العام للتجربة الذاتية مشكلة توتراً دلالياً يضيء الرؤية النصية [٢٨]، والانزياح الذي تولد في الحركة الضدية للأفعال "لتبرأ، لتسقم، خوفك، أمنك، لتأمن، لتخاف" أدى إلى خلخلة الأطر المعجمية؛ فضلاً عن انطواء الأفعال في حركتها المتعاكسة مؤدية إلى توالد دلالي يهيئ أرضية مناسبة تنظم العلاقة مع المجتمع، وإذ بدأ المتكلم بأطر تحاول مأسسة العلاقة مع الفضاء (العام) يتحول إلى الخاص ضمن محاولة جمع الدلالات في قاسم معنوي مشترك إذ يقول: "الإخوان ثلاث طبقات أخ كالغذاء الذي تحتاج إليه في كل يوم وفي كل وقت وهو الأخ العاقل الأديب واخ كالدواء، وتحتاج إليه عند الداء، وهو الأخ الأريب، وأخ كالداء الذي لا تحتاج إليه وهو الأحمق...".

نجد تماهي الذات في صوغ تلك الدلالات التي تمحورت في اندماج الذات في المجتمع وانبجاس تلك الإرهاصات عنها ومحاولة البوح بها، واستحضار الذات للغة يمنحها فسحة للتجلي في فضاءات البنى اللغوية والتواشج الفطري في وعي تلك اللغة [٢٩]، لاسيما اللغة المجازية التي حضرت بتواشج المألوف عامة، إذ ظهرت المدلولات التشبيهية في الحسي المتداول، وان بين قدرة المتكلم على كسر أفق السامع والغور في الخيال ليهب الموصوف (الأخ) مدلولات مادية جديدة؛ لان الصورة عامة هي نتاج لفاعلية الخيال وإعادة تشكيل أقطاب تلك الصورة وتجميعها بعلاقة الانسجام وحتى التوحد [٣٠]، فالتقسيم الذي أراد به المتكلم الكشف عن رؤية معمقة للأشياء، فضلاً عن منح النص انفتاحاً دلالياً جديداً يهدف إلى إقناع السامع والتأثير عليه، ومحاولة تحقيق تكافؤ يجمع الأبناء ويوحدهم والتوازن في تلك العلاقات.

ويكتنز النص بمزيد من الجماليات التي أخذت تتداعى تبعاً لتعمق الذات في مكنونات تجربتها، ومحاولة استدراكها وصوغها بتركيب جمالي يشد المتلقي ويؤثر فيه.

الخاتمـــة

بعد هذه الرحلة الممتعة في رحاب الوصايا النثرية في العصر العباسي، وقراءة في الوظائف التداولية أدرك البحث جملة من النتائج كان أهمها:

١-تنوعت الوصايا النثرية في العصر العباسي، واختلفت موضوعاتها وكانت أكثر التصاقاً برجال الدولة وقادتها، فضلاً عن الوعاظ والزهاد، بحكم السلطة والقرب من العامة، وللسلطة الدافع الأكبر في الإبداع في هذا الفن والإكثار منه، فضلاً عن التجربة التي يتمتع بها المتكلم، وإدعاء الفهم والخبرة أكثر من المتلقي.

٢-كان حظ المرأة من الوصايا النثرية قليلاً جداً، إذ ظهرت نصوص يمكن حصرها من أم لولدها أو لابنتها وبموضوعات اجتماعية محددة، وقد يرجع هذا لبعد المرأة عن السياسية ومكوثها في منزلها دون الاختلاط بعامة الناس، والاحتكاك بهم فكانت موضوعات وصايا المرأة محدودة جداً وتقدم لأقرب الناس عامة.

٣-تداخل منهج التداولية مع فن الوصايا من جهة الاتصال بالسياقات الثقافية، والتي تعززت في الأساليب التي يقتضيها فن الوصايا كالأمر والنهي وغيرها، ومقدار استجابة المتلقي لتلك الأساليب.

٤-أعطت الشفاهية التي تميزت بها الوصايا عامة، فرصة في إبراز شخصية المتكلم وجلاء مقاصده بما يقدمه من إيماءات أو إشارات تعزز في قبول السامع للوصية والأخذ بها، فضلاً عن معرفة مدى قبول السامع ودرجة قناعته بما يسمع على وفق استراتيجية تواصلية تعنى باللفظ وغيره، وهذا ما تعنى به التداولية، وان وجدت عدد من الوصايا المكتوبة أيضاً.

٥-تداخلت الوظائف التداولية في الوصايا النثرية عامة، فكان التركيز على الوظيفة الأبرز في وصية دون أخرى، والتي ظهرت بأشكال أدبية متنوعة.

٦-برزت الوظيفة الحجاجية في النصوص عامة، في كونها وظيفة اللغة الأبرز فتعززت بتنوع الأساليب وتباينها، فظهر الأمر والنهي والنفي وغيرها، والتي تعنى بإقناع السامع والتسليم بما يقوله المتكلم، وان تراوحت حسب الموقف الذي ترد فيه.

٧-ظهرت الوظيفة التوجيهية بمستوى عميق وثر، حاول المتكلم تحريك عدد من الأدوات للوصول إلى تحقيق تلك الوظيفة، فقدم لغة مشحونة الدلالات للإفهام والترغيب، والتلون الخطابي لتحقيق غايته.

٨-حاول المتكلم الوصول لواقع جديد يؤسسه على وفق عدد من المعطيات الدلالية والجمالية سواء بالتضاد أو بالتوازي أو الإيحاء ليصل إلى النموذج المثالي (الجمالي)، لاستمالة المتلقي والتأثير عليه، فضلاً عن تحقيق المتعة الجمالية عنده.

الهوامش

[١]() ينظر: التداولية مقاربات في المفهوم والتأصيل، محمد امطوش: ٢٤.

[٢]() ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة، عبد اللطيف عادل: ٩٦- ٩٧.

[٣]() الأمالي، أبو إسماعيل بن القاسم البغدادي: ٨١/٢.

[٤]() ينظر: الخطاب والحجاج، أبو بكر العزاوي: ١٨.

[٥]() ينظر: التداولية مقاربات في المفهوم والتأصيل: ٢٢٦.

[٦]() ينظر: الحجاج في قصص الأمثال القديمة مقاربة سردية تداولية، عادل بن علي الغامدي: ١٦٤.

[٧]() الخطاب والحجاج: ٢١.

[٨]() ينظر: نظرية نسقية في الحجاج المقاربة الذريعة- الجدلية، فرانز فان ايمرن، روب غرو قندورست، ت: عبد المجيد جحفة: ٨٤.

[٩]() المصدر نفسه: ٨٤.

[١٠]() معجم مصطلحات الادب، مجدي وهبة: ٤٣٠.

[١١]() إبراهيم بن ادهم شيخ الصوفية، عبد الحليم محمود: ١٠٩.

[١٢]() بلاغة الاقناع في المناظرة: ٦٣.

[١٣]() ينظر: بلاغة الاقناع في المناظرة: ٦٣.

[١٤]() ينظر: نظرية نسقية في الحجاج المقاربة الذريعية الجدلية: ٩٧.

[١٥]() ينظر: النص والمنهج، دراسات في الادب العباسي، د. منتصر الغضنفري: ٩٦.

[١٦]() ينظر: التداولية مقاربات في المفهوم والتأصيل: ١٨١.

[١٧]() ينظر: المصدر نفسه، ١٣٧.

[١٨]() ينظر: بلاغة الاقناع في المناظرة: ١٨٦- ١٨٧.

[١٩]() ينظر: التداولية متقاربات في المفهوم والتأصل: ١٣٧.

[٢٠]() ينظر: بلاغة الاقناع في المناظرة: ٩١.

[٢١]() في حجاج النص الشعري، محمد عبد الباسط عيد: ٢٢.

[٢٢]() خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، عبد الرحمن سنبط الاربلي: ١٩١.

[٢٣]() ينظر: الحجاج في قصص الأمثال القديمة مقاربة سردية تداولية: ٣٠٨.

[٢٤]() ينظر: انساق التداول التعبيري دراسة في نظم الاتصال الادبي الف ليلة وليلة، نموذجاً تطبيقياً، د. فائز الشرع: ١٨٥-١٨٦.

[٢٥]() ينظر: تجليات الرماد دراسة في البنية الفنية لشعر عبد الكريم راضي جعفر، تغريد حميد محمود: ١٩٩.

[٢٦]() ينظر: الحجاج في قصص الأمثال القديمة مقاربة سردية تداولية: ١٩٤.

[٢٧]() ينظر: تحليل النصوص الأدبية قراءات نقدية في النثر والشعر، عبدالله إبراهيم وصالح هويدي: ١٠٣-١٠٤.

[٢٨]() ينظر: البنيات الدالة في شعر شوقي بغدادي، محمد حمزة الشيباني: ١٥٠.

[٢٩]() ينظر: المصدر نفسه: ٤٤.

[٣٠]() ينظر: حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي (.80 :(

قائمة المصادر والمراجع

١-إبراهيم بن ادهم شيخ الصوفية، عبد الحليم محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، ١٩٧٢.

٢-الأمالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي، دار الفكر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

٣-أنساق التداول التعبيري دراسة في نظم الاتصال الأدبي الف ليلة وليلة، نموذجاً تطبيقياً، فائز الشرع، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠٩م.

٤-بلاغة الإقناع في المناظرة، عبد اللطيف عادل، دار الأمان، الرباط، ط١، ٢٠١٣م.

٥-البنيات الدالة في شعر شوقي بغدادي، محمد حمزة الشيباني، رند للطباعة، دمشق، ط١، ٢٠١١م.

٦-تجليات الرماد دراسة في البنية الفنية لشعر عبد الكريم راضي جعفر، تغريد مجيد حميد محمود، دار ومكتبة عدنان، بغداد، ط١، ٢٠١٦م.

٧-تحليل النصوص الأدبية قراءات نقدية في السرد والشعر، عبدالله إبراهيم، صالح هويدي، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٨-التداولية، مقاربات في المفهوم والتأصيل، محمود امطوش، دار نيبور، العراق، ط١، ٢٠١٤م.

٩-الحجاج في قصص الأمثال القديمة مقاربة سردية تداولية، عادل بن علي الغامدي، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط١، ٢٠١٦م.

١٠-حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي ()، كمال الزماني، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠١٢م.

١١-الخطاب والحجاج، أبو بكر العزاوي، مؤسسة الرحاب الحديثة، لبنان،ط١، ٢٠١٠م.

١٢-خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، عبد الرحمن سنبط قنيتو الاربلي، تصحيح وطبع: مكي السيد جاسم، مكتبة المثنى، بغداد، ط٢، ١٩٦٤م.

١٣-في حجاج النص الشعري، محمد عبد الباسط عيد، أفريقيا الشرق، المغرب، (د.ط)، ٢٠١٣م.

١٤-معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة، مكتبة لبنان، بيروت، (د.ط)، ١٩٧٤م.

١٥-نظرية نسقية في الحجاج المقاربة الذريعية- الجدلية، فرانزفان ايمرن وروب غروتندورست، ت: عبد المجيد جحفة، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط١، ٢٠١٦م.

List of Sources and References

1- Ibrahim bin Adham, Sheikh of Sufism, Abdel Halim Mahmoud, The Egyptian General Book Authority, (d. T), 1972.

2- Al-Amali, Abu Ali Ismail bin Al-Qasim Al-Baghdadi, Dar Al-Fikr, Beirut, (d. T), (dt).
3- The patterns of expressive deliberation, a study in literary communication systems, A Thousand and One Nights, an applied model, Faiz Al Sharaa, House of General Cultural Affairs, Baghdad, 1st Edition, 2009 AD.
4- The rhetoric of persuasion in the debate, Abd al-Latif Adel, Dar Al-Aman, Rabat, 1st Edition, 2013 AD.
5- Structures in the Poetry of Shawqi Baghdadi, Muhammad Hamza Al-Shaibani, Rand for Printing, Damascus, 1st Edition, 2011 AD.
6- Manifestations of Ashes: A Study of the Artistic Structure of Abdul Karim Radi Jaafar's Poetry, Taghreed Majeed Hamid Mahmoud, Adnan House and Library, Baghdad, 1st Edition, 2016 AD.
7- Literary Text Analysis, Critical Readings in Narration and Poetry, Abdullah Ibrahim, Saleh Huwaidi, Dar Al-Kitaab Al-Jadeed, Beirut, 1st Edition, 1998 AD.
8- Deliberative, Approaches to Concept and Authentication, Mahmoud Amtouch, Dar Niebuhr, Iraq, 1st Edition, 2014 AD.
9- Al-Hajjaj in the stories of ancient proverbs, a narrative and deliberative approach, Adel bin Ali Al-Ghamdi, House of Knowledge Treasures, Jordan, 1st Edition, 2016 AD.
10- Hajjiya of the image in the political speech of Imam Ali (), Kamal al-Zamani, Modern Book World, Jordan, 1st Edition, 2012 AD.
11- Al-Khattab and Al-Hajjaj, Abu Bakr Al-Azzawi, Al-Rehab Modern Foundation, Lebanon, 1st Edition, 2010 AD.
12- The Summary of Casted Gold, a summary of the biographies of the Kings, Abd al-Rahman Sanbat Qunaito al-Arbeli, corrected and printed: Makki Al-Sayyid Jassim, Al-Muthanna Library, Baghdad, 2nd Edition, 1964 AD.
13- In Hajjaj poetic text, Muhammad Abd al-Basit Eid, East Africa, Morocco, (D. T), 2013 AD.
14- Glossary of Literature Terms, Magdy Wahba, Lebanon Library, Beirut, (D. T), 1974 AD.
15- A Systemic Theory in Al-Hajjaj, The Argumentative-Dialectical Approach, Franzvan Emmern and Rob Grottendorst, T: Abdul Majid Jahfa, The New Book United House, Lebanon, 1st Edition, 2016 AD.